

٣- ما بين الميلاد المبارك وشروق شمس البعثة النبوية

(أ) زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمن بنت وهب،

ورؤيا آمن أم النبي ﷺ

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوجه أبوه من أشرف نساء مكة نسباً، وهي آمن بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به آمن ودُفن بالمدينة عند أخواله «بني عدي ابن النجار» فإنه كان ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، وترك هذه النسمة الطاهرة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله عزَّ وجلَّ بحكمته ورحمته وتربيته وتأديبه وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمن هو بداية أمر النبي، قيل للنبي ﷺ ما أول بدء أمرك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»^(١).

ودعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي قوله: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].
وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله عزَّ وجلَّ حاكياً عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصافات: ٦].

ووقوله: «ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام». قال ابن رجب: وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك منها، كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ

(١) رواه أحمد (٥/٢٦٢)، والحاكم (٢/٦٠٠) التاريخ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه ووافقه الذهبي، وله طرق وروايات مختلفة وانظر: «الصحيحة» رقم (١٥٤٥/١٥٤٦).

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ
كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وَقَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ١٥٧] ^(١).

وقال ابن كثير: وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوت به بلاد
الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم
إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في «الصحيحين»: «لا تزال طائفة
من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم
كذلك» وفي «صحيح البخاري»: «وهم بالشام» ^(٢).

(ب) ميلاد المصطفى ﷺ ونشأته

وفي يوم الاثنين ليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل: ثمانية، وقيل: عشرة، وقيل: ثنتي
عشرة وعليه الأكثر، وذلك عام الفيل تبشير الصباح، وولد المصطفى ﷺ ^(٣).

وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم، وهي التي سميت بعد ذلك بدار
محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، وهي الآن مكتبة عامة.

(١) «لطائف المعارف» [٨٩].

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/١٨٤) ط. الحلبي (١/٢٦٨) ط. الشعب، والحديث: رواه البخاري

(٢٠٦/١٣) الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٣/٦٥) الإمارة.

(٣) ما ورد في الروايات من أنه ﷺ ولد محتوناً مسروراً فليس بثابت، والصواب: أنه ﷺ ختن
على عادة العرب وكان عموم هذه السنة للعرب مغنياً عن نقل معين فيها، وكذا لم يصح انفلاق البرمة التي
وضعها عليه النساء، وكذا لم يصح أنه ﷺ كان يناغي القمر ويشير إليه بأصابعه، وانظر «مرويات
العهد المكي» للدكتور عادل عبد الغفور.

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه، وأول من أرضعته ثوبية أمة عمه أبي لهب.

عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، انكح أختي بنت أبي سفيان فقال: «أوتحبين ذلك»، فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «(إن ذلك لا يحل لي)»، قلت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «بنت أبي سلمة؟»، قلت: نعم، فقال: «لو أنها لم تكن ربيستي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتهني وأبا سلمة ثوبية، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»^(١)، قال عروة: وثوبية مولاة لأبي لهب، وكان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر خيبة قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدهم رخاء غير أني سقيت في هذه بعثاتي ثوبية.

ثم استرضع صلى الله عليه وسلم في بني سعد بن بكر^(٢)، وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، وكانوا يقولون إن المرء في المدينة يكون كليل الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليلة السعدية.

(١) رواه البخاري (٤٣/٩) النكاح، ومسلم (٢٥-٢٨/١٠) الرضاع.

(٢) قصة رضاع النبي صلى الله عليه وسلم وردت من حديث حليلة بنت عبد الله بن الحارث السعدية نفسها رواها ابن إسحاق «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/١٨٣-١٨٨) ط. الأزهرية، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (كما في المطالب العالية ٤٢٥٢)، وابن جرير الطبري في «تاريخه» (٢/١٥٨-١٦٠) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص: ١١١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/١٣٢-١٣٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (السيرة النبوية ١/٧٤-٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (موارد ٢٠٩٤) وأبو يعلى في «مسنده» [٧١٦٣]، كلهم من طريق ابن إسحاق، ويبدو أن فيه انقطاعاً لكن له شاهد في «الصحيح» رقم (٣٧٣) ورقم (١٥٤٥)، وقد قدمت حليلة السعدية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو نازل الجعرة فأخرج البخاري في «الأدب المفرد» [١٢٩٥]، وأبو داود في «السنن» [٥٢٤٤]، وأبو يعلى [٩٠٠]، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٤٩ موارد)، والحاكم في «المستدرک» (٣/٦١٨) من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بالجعرانة يقسم لحماً قال أبو الطفيل وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير، قال: فأقبلت امرأة بدوية فلما دنت من النبي صلى الله عليه وسلم بسط لها رداءه فجلست عليه قال: فسألت من هذه؟ قالوا: أمة التي أرضعته.

وحصل له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بادية بني سعد بن بكر حادثة شق الصدر^(١)، وروى مسلم عن أنس بن مالك: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: «هذا حظ الشيطان منك» ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: «إن محمداً قد قتل» فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره^(٢)، ثم أشفقت عليه مرضعته فأعادته إلى أمه، وتوجعت به أمه إلى المدينة لزيارة أحوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق، فماتت بالأبواء^(٣) ودفنت هناك.

ولسان القدر يقول هذا الغلام لا يؤثر عليه أبوه وأمّه بنوع من التربية، والله عزَّ وجلَّ يتولى تربيته وتهذيبه، والأكثر على أن وفاة أمه آمنة كان وله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العمر ست سنوات، فحضنته أم أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورق له رقة لم تعهد له في ولده.

روى عبد الرزاق في «مصنفه» عن معمر، عن الزهري قال: «ثم توفيت أمه فيتم في حجر جده فكان - وهو غلام - يأتي وسادة جده فيجلس عليها، فيخرج جده، فتقول الجارية التي تقوده، انزل عن وسادة جدك، فيقول عبد المطلب: دعي ابني فإنه يُحس بخير، ثم توفي جده ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلاماً»^(٤).

(١) الحديث: رواه أحمد (٤/ ١٨٤)، والحاكم (٢/ ٦١٦، ٦١٧)، والدارمي (١/ ٨، ٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وفيه نظر فإن بقية إنما له في مسلم فرد حديث متابعة كما قال الخرزجي، وهذا إسناد حسن فقد صرح بقية بالتحديث إلى أن قال: ولهذا الحديث شواهد كثيرة انظر «الصحيحة» رقم [٣٧٣].

(٢) رواه مسلم (٢/ ٢١٥-٢١٧) الإيمان، وقد تكررت حادثة شق الصدر في قصة الإسراء من طريق سليمان بن المغيرة قال: حدثنا ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم فُشِّر عن صدري ثم غسل بماء زمزم ثم أنزلت» رواه مسلم (٢/ ٢١٥) الإيمان.

(٣) قرية بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة.

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (٥/ ٣١٨) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٨٨، ٨٩)، وهذا مرسل صحيح إلى الزهري.

وتوفي عبد المطلب وكان عمر النبي ﷺ ثمانى سنوات، فكفله شقيق أبيه أبو طالب، وكان به رحيماً، وكان مُقلاً في الرزق فعمل النبي ﷺ برعي الغنم مساعدةً منه لعمه.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت!، فقال: «نعم. كنت أراهما على قراريط لأهل مكة»^(١).

وعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران نجني الكباش فقال: «عليكم بالأسود منه فإنه أطيب» فقليل: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «نعم وهل من نبي إلا رعاها»^(٢). ثم اشتغل ﷺ بالتجارة.

روى عبد الرزاق في «المصنف» عن معمر عن الزهري في سرده للسيرة قال: فلما استوى، وبلغ أشده وليس له كثير من مال استأجرته خديجة ابنة خويلد إلى سوق حباشة - وهو سوق بتهامة - واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها: «ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة»^(٣).

(١) رواه الترمذي (٥١٦/٤) الإجارة، ومالك (٩٧١/٢) الاستئذان بلاغاً، وابن ماجه (٢١٤٩) التجارات.

(٢) رواه البخاري (٤٨٨/٩) الأطعمة، ومسلم (٥/١٤)، الأثرية، والكبث: هو النضيج من شجر الأراك.

(٣) عبد الرزاق في «المصنف» (٣١٩/٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٩٠/١) و (٦٨/٢). وقد وردت روايات أخرى مطولة في خروج النبي ﷺ بتجارة خديجة إلى الشام، وفي بعضها أنه ظهرت عليه ﷺ في هذه السفرة من العلامات الدالة على نبوته ما حدا بخديجة أن تطلب منه الزواج فاستجاب لذلك ﷺ وهي روايات واهية. انظر «الطبقات الكبرى» (١/١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٥٥-١٥٧)، و«دلائل أبي نعيم» (١/٢١٩، ٢٢٢)، و«تاريخ دمشق» (١/١٠، ١١) «السيرة النبوية» للذهبي [٣١].

فصل في حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ

في شببته عن أقذار الجاهلية

فمن ذلك: أن الله عزَّ وجلَّ صانه عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام، ومن أولى هذه المنقبة من صاحب الرسالة العصماء التي هي أسمح الشرائع في العمل، وأشدّها في إخلاص التوحيد والبعد عن الشرك، روى أحمد في «مسنده» عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «أي خديجة والله لا أعبد اللات والعزى»، قال: كان صنمهم التي كان يعبدون ثم يضطجعون^(١).

ومن ذلك: أنه كان لا يأكل ما ذبح على النُصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل، عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح^(٢) قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد: «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلّا ما ذكر اسم الله عليه، وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكاراً لذلك وإعظاماً له»^(٣).

ومن ذلك: توفيقه للوقوف بعرفة قبل البعثة، مخالفة لما ابتدع قومه من رأى الحُمس، والأحمس الشديد على دينه، وكانت قريش تسمى الحمس، وكان الشيطان قد استهواهم

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢/٤)، (٣٦٢/٥) وفضائل الصحابة (٨٥١/٢) رقم [١٥٧٨] وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٥/٨): رجاله رجال الصحيح.

(٢) ذكرها ياقوت في «معجم البلدان» (٤٨٠/١) وقال: واد قبل مكة من جهة المغرب وقال الحافظ في «الفتح»: مكان في طريق التنعيم ويقال هو واد.

(٣) رواه البخاري (١٤٢/٧) رقم (٣٨٢٦) و(٥٤٩٩) بعضه، ورواه أحمد (٦٩/٢)، وابن سعد (٢٧٧، ٢٧٦/١/٣). قال الألباني: توهم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله: ومن المقطوع به أن بيت محمد ﷺ لا يأكل ذبائح الأصنام، ولكن أراد الاستيثاق لنفسه، والإعلان عن مذهبه، وقد حفظ محمد ﷺ له ذلك وشّر به - هامش «فقه السيرة» للغزالي (ص: ٨٧).

فقال لهم: إنكم إن عظمتهم غير حرمكم استخف الناس بحرمكم، فكانوا لا يقفون بعرفة يوم عرفة، وكان سائر الناس يقف بعرفة، وكانت شريعة محمد بعد ذلك الوقوف بعرفة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

عن محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم قال: أضللت بعيرائي، فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت النبي ﷺ واقفاً بعرفة، فقلت: هذا والله من الحمس فما شأنه ههنا^(١).

ومن ذلك: حفظ الله عزَّ وجلَّ له من أن تبدو عورته أو يظهر عرياناً، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ اجعل إزارك على رقبتك يذكك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عينه إلى السماء ثم أفاق، فقال: «إزاري إزاري»، فشدَّ عليه إزاره.

وفي لفظ لهما من طريق زكريا بن إسحاق: عن عمرو بن دينار قال: «فحلَّه فجعله على منكبيه فسقط مغشياً عليه، فما رُئي بعد ذلك عرياناً ﷺ»^(٢).

وهكذا شبَّ رسول الله ﷺ يكلؤه الله، ويحفظه من أقدار الجاهلية ومعايبها، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ كما قال ابن إسحاق: إن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم خلقاً وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تُدنس الرجال، تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأيمن، لما جمع الله عزَّ وجلَّ فيه من الأمور الصالحة^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٠٢/٣) الحج، ومسلم (١٩٧/٨)، (١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٥١٣/٣) الحج، ومسلم (٣٣/٤)، (٣٤).

(٣) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٢٠٧/١) ط. مكتبة الكليات الأزهرية. بتصرف.



obeikandi.com

(ج) الأحداث الجسام قبل بعثة النبي ﷺ

١- حرب الفجار

وكانت بين قيس عيلان ومعها ثقيف وغيرها، وقريش والأحباش وهم حلفاء قریش، وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته: أبو طالب وحزرة والعباس، وكان على كل بطن من بطون قریش رئيس، ثم تناجزوا الحرب، فكان يوماً من أشد أيام العرب هولاً، ولما استحل فيه من حرمت مكة التي كانت مقدسة عند العرب، سُميَ يوم الفجار، وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم قبائلها، ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصالح على أن يحصوا قتلى الفريقين فممن وجد قتلاه أكثر، أخذ دية الزائد، فكان لقيس زيادة أخذوا ديتها من قریش، وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان، وهكذا انتهت هذه الحروب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدوها، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم^(١).

قال ابن هشام: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجهم أعمامهم معهم، وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنيل على أعمامي - أي أرد عنهم - نبل عدوهم إذا رموهم بها»^(٢). وقال السهيلي: وإنما لم يقاتل رسول الله ﷺ مع أعمامه لأنها كانت حرب فجار، وكانوا أيضاً كلهم كفار، ولم يأذن الله لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هي العليا^(٣).

وكان سنه ﷺ على الراجح عشر سنين، فقد ذكر موسى بن عقبة في «سيرته» أن بين الفجار وبنان الكعبة خمسة عشر سنة، وأن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة، فعلى القول الصحيح أنه ﷺ بعث لأربعين سنة يكون سنه يوم الفجار عشر سنين^(٤).

(١) باختصار وتصرف من «نور اليقين» (١٦، ١٧) ط. دار القلم.

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢١٠). مع «الروض الأنف».

(٣) «الروض الأنف» هامش (١/ ٢٠٩)، مع «سيرة ابن هشام».

(٤) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٨-٦٠).

٢- حلف الفضول

قال فضل الله الجيلاي: اجتمع تسعة أبطن من قريش منهم بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم - في دار ابن جُعدان - قبل عام الفيل بمدة لما حاول بنو عبد مناف إخراج السقاية واللواء من بني عبد الدار فتحالفت هذه الأبطن على ذلك، وبعثت إليهم أم حكيم ابنة عبد المطلب بجفنة فيها طيب فغمسوا أيديهم، ثم ضربوا بها الكعبة فسموا بذلك المطيبين فجرى الأمر على هذا، حتى قدم مكة رجل من زبيد بتجارة له فباعها من العاص ابن وائل السهمي فمطله بها وغلبه عليها فاستغاث فاجتمعوا بدار عبد الله بن جُعدان: بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه، وكانوا على الظالم حتى يردوا عليه مظلّمته، فهو الحلف الذي تحالفة المطيبون الذين لم يشهدهم رسول الله ﷺ أولاً وشهد حلف الفضول، وسمي بحلف الفضول لأن من قام به كان في أسائه الفضل، كالفضل بن الحارث والفضل بن وداعة والفضل بن فضالة^(١).

عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «شهدتُ حلفَ المطيبين مع عمومتي فما أحب أن لي حمرَ النعم وأني أنكثه»^(٢).

٣- زواجه ﷺ من خديجة

قال الغزالي: «خديجة» مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غبناً بالغاً من الواقع الذي

(١) فضل الله الصمد شرح «الأدب المفرد» هامش (٢/ ٢٨).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٦٧)، وابن حبان (٢٠٦٢ موارد)، والحاكم (٢/ ٢٢٠) التفسير، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأحمد (١/ ١٩٠ - ١٩٣) وهو في «الصحيح» رقم [١٩٠٠].

يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإناس والترفيه، وكانت خديجة سبابة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم^(١).

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار فقبله رسول الله ﷺ وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام^(٢).

ولما رجع إلى مكة ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا وأخبرت بشئائه الكريمة وجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بها في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منيه، وهذه ذهبت إليه فتفاته أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وكلم أعمامه فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلًا، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى مات ﷺ وكل أولاده منها سوى إبراهيم، وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة، توفي عنها، وله منها ولد اسمه هالة، وهو ربيب المصطفى ﷺ.

٤- بناء الكعبة وقضية التحكيم

الكعبة والمسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٦].

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٧٩، ٨٠) باختصار.

(٢) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ٢١٢).

وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وُضع في الأرض؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون يوماً، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركت الصلاة فصل، فإن الفضل فيه»^(١).

وأول من بني هذا البيت العتيق الخليل وولده إسماعيل صلى الله على نبينا وعليهما وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فأوشكت الكعبة على الانهيار قيل: بحريق أصابها، وقيل: بسيل جارف، وكان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات على الراجح، فلم تجد قريش بداً من إعادة بنائها.

وقد أشارت الأحاديث الصحيحة إلى ذلك روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال لها «ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم» فقلت: يا رسول الله ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت».

فقال عبد الله بن عباس: لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم^(٢).

(١) رواه البخاري (٤٦٩/٦) أحاديث الأنبياء، قال الحافظ: وهذا الحديث يُفسر المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [البقرة: ١٢٦]، ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت وقد ورد ذلك صريحاً عن علي أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله (٤٧٠/٦) من «فتح الباري».

(٢) رواه البخاري (١٥٣/٣) الحج.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة لأنهم شرطوا على أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربًا، ولا مظلمة لأحد، فأخرجوا من الجهة الشمالية ستة أذرع وهي التي تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض لثلاث يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وقد شارك النبي ﷺ في بناء الكعبة كما مر آنفًا من نقله الحجاره مع عمه العباس، وروى الإمام أحمد عن مجاهد عن موله أنه حدثه أنه كان فيمن يبني الكعبة في الجاهلية قال: ولي حجر أنا نحتته بيدي أعبد من دون الله تبارك وتعالى، فأجىء باللبن الخائر الذي أنفسه على نفسي فأصبه عليه فيجىء الكلب فليحسه ثم يشغر فيبول، فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر، وما يرى الحجر أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل، فقال بطن من قريش: نحن نضعه، وقال الآخرون: نحن نضعه، فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، قالوا: أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو ﷺ (١).



(١) رواه أحمد (٤٢٥/٣) من حديث السائب بن عبد الله وحسنه الألباني وقال: ثم وجدت للحديث شاهدًا من حديث علي رواه الطيالسي في «مسنده» (٨٦/٢) بترتيب الشيخ عبد الرحمن البنا، هامش «٨٥» من «فقه السيرة» للغزالي.